في الدعوة والحركة

حتمية انتصار الإسلام

زهير إبراهيم

عَنْ عَبْدِ اللهِ خَبَّاب بْنِ الأَرَتِّ ﷺ قَالَ : شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَـــةِ ..-وفي رواية : وَقَدْ لَقِينَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً - . فَقُلْنَا : أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا ، أَلاَ تَدْعُو لَنَا ؟

فَقَالَ : « **قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَـــى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ! وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ** » رواه البخاري .

* * *

نقف مع هذا الحديث الشريف أمام إيحاءات عميقة وحقائق قائمة عبر تاريخ الدعوة إلى الله تعالى أختـــار منـــها واحداً فقط وهو حتمية انتصار الإسلام على العداوات الكافرة .. الذي يوحي به وعد رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام وقد كانوا يمرون في فترة حرجة من فترات حياتهم في مكة المكرمة قبل الهجرة ، حيث اشتدت بهم المحنـــة ، وكـــشر طغاة قريش عن أنيابهم ، وأظهروا مخالبهم وعَدَوْا على الفريسة المستضعفة من المسلمين وهم آمنون من أن يؤخـــذوا بجريرة عدوانهم ، أو يسألوا مجرد سؤال ، فالأرض كلّها كافرة ، وقبائل العرب كلّه مشركة يؤيّدون طغـــاة قـــريش ورؤوس الكفر فيها لما لهم من مكانة لديها ..

كان خباب بن الأرت ﷺ أحد هؤلاء المستضعفين الذين أوذوا في الله تعالى أخذه المشركين مرة وأوقدوا له الجمر وجردوه من ثيابه ، وألقوه على ظهره على الجمر ، وجاء رجل من المشركين فوضع رجله على صدر خباب ..

يقول خباب : فلا والله ما أطفأ الجمر إلاّ ودك (أي وهن) ظهري ..

في تلك الفترة الحرجة التي اشتد فيها الأمر على المسلمين ، وضاق بهم الكرب ، واكفهرّ الجوّ ، وبدا أن الأمر قد أحكم ، وأن الدعوة الإسلاميّة قد حبست في نفوس أصحابها ، وكأن لا بارقة أمل .. صدر هذا الوعد الكريم مـــن

النبي الذي لا ينطق عن الهوى ، حاشاه ﷺ إنما هو الوحي المنـــزل من عند الله تبارك وتعالى الذي بيده الأمر والتدبير ..

﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم : ٣-٤] .

لقد نطق رسول الله ﷺ بذلك الوعد الكريم ، وبغيره من الوعود الكريمة ، لم يمنعه من ذلـــك انتفـــاش الباطـــل وحولته ودلالة ظواهر الأمور ، لأن الله تعالى أراد ذلك ، ومحمد بن عبد الله ﷺ هو رسوله الـــذي ينطـــق عنـــه .. والأمور وحقائقها وسرّها بيد الله عزَّ وجلّ .

لقد تحقق ذلك الوعد الكريم ، كما نطق به رسول الله ﷺ ، فكان الراكب يسير أطراف الجزيرة العربية البعيـــدة عن مركز الحكم وعاصمته في المدينة المنورة ، وهو لا يخاف إلاّ الله عزَّ وجلَّ ولا يخشى على غنمه إلاّ الذئب . وتحقق كذلك كل وعد نطق به رسول الله ﷺ حلّ أجله لم يتخلف منها وعد ..

وعد رسول الله ﷺ بفتح الحيرة ومدائن كسرى والقسطنطينية وسائر بلاد الفرس والروم ، وظهـــور المـــسلمين وصيرورة كنوز كسرى وقيصر للمسلمين .. وكانت هذه الوعود عند أهل ذلك الزمان لا تكاد تصدق عند الكـــثير من الناس كما أن فتح روما وواشنطن وموسكو لا يكاد يصدق عند أهل هذا الزمان ..

قال عدي بن حاتم الطائي ﷺ –وقد كان نصرانياً– ، دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « **يا عدي أسلم تسلم** » فقلت : إني على دين . فقال : « **أنا أعلم بدينك منك** » . فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟! قال : « **نعم ، ألست من الركوسيد ، وأنت تأكل مرباع قومك** ؟ قلت : بلى . قال : « **فإن هذا لا يحل لك في دينك** » . قال : فلـــم يعد أن قالها فتواضعت لها . قال : « **أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفه الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب . أتعرف الحيرة** ؟ » قلت : لم أرها ، وقد سمعت بها .

قال : « **فو الذي نفسي بيده ، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز** » قلت : كسرى بن هرمز ؟! قال : « **نعم ، كسرى بـــن هرمـــز . وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد** » .

– وفي رواية أخرى : قال عدي : فقلت في نفسي حين ذكر الظعينة تمشي من غير جوار أحد قلت : أين لصوص طي ؟ ثم أسلم ﷺ

قال عدي : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فـــتح كنـــوز كسرى بن هرمز . والذي نفس عدي بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وقد كانت في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ وستكون مرة أخرى بإذن الله عزَّ وجلّ .

ووالله الذي لا إله إلاّ هو ليكونن كل ما أخبر به رسول الله ﷺ وفي وقته ، ولو حالت دون ذلك قـــوى الأرض كلها مجتمعة ومتفرقة ، لأن رسول الله ﷺ قال ذلك ..

روى الإمام أحمد في سنده قال : قال رسول الله ﷺ : « **لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ ، وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّـــهُ بِهِ الْكُفْرَ** » رواه الإمام أحمد في مسنده (ج٦ ص٤ – طبع المكتب الإسلاميّ ودار صادر) .

ولا بد أن يتحقق هذا ويتحقق قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الـــدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة : ٣٣] .

ولا بد أن يخفق علم لا إله إلا الله محمد رسول الله . في عواصم الدول الكبرى والصغرى و(**لاَ يَبْقَى عَلَى ظَهْـــرِ الأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الإِسْلاَمِ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ ، إِمَّا يُعِزُّهُمْ اللَّـــهُ عَـــزَّ وَجَـــلَّ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا ، أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا** » ويدفعون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، رواه الإمام أحمد عن المقداد بن الأَسود عن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .

سينتصر هذا الدين ، وسينتشر نوره في الأرض كلها ، وستطوي رايته الرايات كلها ولن يحول ذلك ما يبدو من ضعف المسلمين عامة –فإن هذا أمر عرضي لن يدوم وسيزول إن شاء الله تعالى كما لا يحول اجتماع القوى الكافرة العالمية والمحلية دون تحقق هذا الوعد الكريم لأنه مراد الله عزَّ وجلَّ ولا رادَّ لما يريده ﷻ : ﴿ ... **وَاللَّهُ غَالِـــبٌ عَلَـــى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٢١] .

إنّ ما يلقاه المسلمون اليوم من اجتماع وتعاون القوى الكافرة العالمية والمحلية ضدهم ، وما تشنه هذه القوى مـــن هجمات شرسة وحشية عليهم ، وما تنـــزله من ضربات وحشية قاسية بالمسلمين الصادقين الذين أبـــوا أن يمنحـــوا ولاءهم للشرق أو للغرب وإنما منحوه لله ولرسوله وللقادة المسلمين الصادقين المتميزين به ممن ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [المائدة : ٥٥-٥٦] .

إنّ هذا الذي يلقاه المسلمون اليوم ليس هو الأول من نوعه في تاريخهم وتاريخ الدعوة إلى الله تعالى ومع ذلك فإنه على ضخامته لم يطفئ نور الله عزَّ وجلَّ في الماضي ولن يطفئه بإذن الله تعالى في الحاضر ولا في المستقبل ، ولم يحـــل دون تحقق أي وعد رسول الله ﷺ حين حلّ أجله ، بل تحققت تلك الوعود كلها ، لم ينخرم منها وعد ، ولم يتخلف عن أجله حين حلّ أجله .

بل إنّ مما يلفت الانتباه إليه بقوة أن معظم هذه الوعود الكريمة ، صدرت عن سيدنا وقائد دعوتنا رسول الله ﷺ والمسلمون معه كانوا في أشد ظروفهم حرجاً وضعفاً ، كما رأينا في حديث خباب المتقدم في أول هذه الكلمة ، ومع هذا فقد تحققت كلها في مواعيدها ، و لم تحل شدة الظروف وقسوتها دون تحققها ..

بل أقول أكثر من هذا .. أقول : إنّ البلاد الإسلاميّة التي تحكم اليوم بالحديد والنار ، وتحكمها جبراً عنها حكومات عسكرية انقلابية .. هذا نفسها باتت اليوم قريبة جداً من العودة إلى الحياة الإسلاميّة ، والحكم الإسلاميّ الرشيد ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « **تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ..**

ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ..

ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ..

ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ..

ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ » ثُمَّ سَكَتَ . مسند الإمام أحمد

وإذاً : فإنّ الدماء المسلمة الزكية التي أهرقتها القوى الكافرة العالمية والمحلية ، إنّ هذه الدماء الزكية الطاهرة من دم الإمام الشهيد حسن البنا إلى دم الشهداء عبد القادر عودة ، وسيد قطب إلى دم الشهيدة بنان الطنطاوي إلى دماء العشرات بل المئات من الشهداء الكرام رحمهم الله تعالى إنّ هذه الدماء ستكون قد ارتدّت لعنة في الدنيا قبل الآخرة على هاتيك القوى الكافرة العالمية والمحلية ، وآتت ثمارها المرجوّة في المسلمين صحوة إسلامية مباركة تسري في جسم الأمة المسلمة حقيقة وواقعاً ، لا وهماً ولا خيالا .. سريان دم الغلام الزكيّ في الجموع المحتشدة إيماناً راسخاً مستعلناً آمنا بالله ربّ الغلام .. كما هو معروف في حديث الغلام والساحر في قصة أصحاب الأخدود ..

ومن ثم نجد تلك القوى الكافرة العالمية والمحلية تجهد وتبذل الأموال الطائلة لتطويق هذه الصحوة الإسلاميّة المباركة وإيقاف نموها المتصاعد .. ولكن هيهات هيهات .. وما مثلها في جهدها هذا إلاّ كمثل رجل أحمق أغاظه حرّ الشمس في بلد حار .. فخرج عند الظهيرة حاسر الرأس ، حافي القدمين ، وجعل ينفخ بفيه على الشمس يريد إطفاءها ..

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٣٦] .

﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة : ٣٢] .

وإذن فهذا الذي يلقاه المسلمون ، وينـــزل بالدعاة إلى الله تعالى ما هو في الحقيقة إلاّ بمثابة آلام المخاض الـــتي لا بد منها والتي تسبق الولادة وترافقها .. فهي من مستلزماتها التي لا بد منها ، وهي أيضاً من أماراتهـــا الدالـــة علـــى وقوعها الحتمي واقتراب أجلها ووشوكه ما بين ساعة وأخرى أو بين لحظة وأخرى .. بإذن الله تعالى .. ومن هنا فإن الناس إذا ما رأوا آلام المخاض قد حضرت يستبشرون باقتراب الولادة ، ومجيء الوليد المنتظر ، ويستيقنون بـــذلك ، لأن هذا ما عهدوه من سنن الله تعالى التي لا تتخلف .. وهكذا نحن موقنون بنصر الله عزَّ وجلَّ وحتمية واقتراب أجله بإذن الله تبارك وتعالى من وراء هذه الآلام .. آلام المخاض التي نزلت اليوم بالأمة الإسلاميّة ..

وإني أهتف مع أستاذنا وقائدنا الأستاذ الكبير عصام العطار :

أحبّـــاي إنّ النصـــر لا بـــد قـــــادم وإنّـــي بنصـــــر الله أوّلُ واثـــــقِ
ســـــنصدع هذا الليـــل يوماً ونلتقـــي مع الفجـــر يمحـــو كلَّ داجٍ وغاســـقِ
وتمضـــي بنـــا الأيـــام عَزْمـــاً مســـدّداً ونبلـــغ ما نرجـــوه رغـــم العوائـــــقِ
فيعلـــو بنـــا حـــقٌّ -عَلَوْنـــا بفضلـــه- على باطلٍ -رغـــم الظواهرِ- زاهـــقِ
ونصنـــع بالإســـــلام دنيـــا كريمـــــةً وننشـــــر نـــورَ الله في كل شـــــارقِ

وكلمة أخيرة : لقد عهدنا من سنة الله تعالى ورحمته في كلّ شارق بعباده المؤمنين الصادقين وأوليائه المتميـــزين ، أن يكون الفرج مع الضيق ، وأن الأمر إذا ضاق اتسع ، والله ﷻ هو الذي قضى بذلك فقال سبحانه : ﴿ **فَإِنَّ مَـــعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ [الشرح : ٥-٦] .

خرج رسول الله ﷺ مرة وهو يقول في تفسير هذه الآية : « **لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ** ».

وقال ﷺ مرة لأصحابه ، وكان بالقرب منه جحر صغير : « **لو جاء العسر فدخل هذا الجحر ، لجاء اليـــسر حتى يدخل عليه فيخرجه** » ثم قال : ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ .

وإذن فهذه المحن التي تنـــزل اليوم بالمسلمين الصادقين ما هي إلاّ بمثابة اسوداد الليل واشتداد ظلمته في أواخـــره وقبل انبثاق الفجر ..

اشـــتدي أزمـــة تنفرجي قـــد آن ليلك بالبلـــج

قال تعالى :﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [يوسف : ١١٠] .